رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

مقومات الثقافة الإسلامية

إعـداد

الدكتور محمد أحمد يعيش

رئيس قسم العقائد والأديان بجامعة الجزائر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ – ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨ – ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

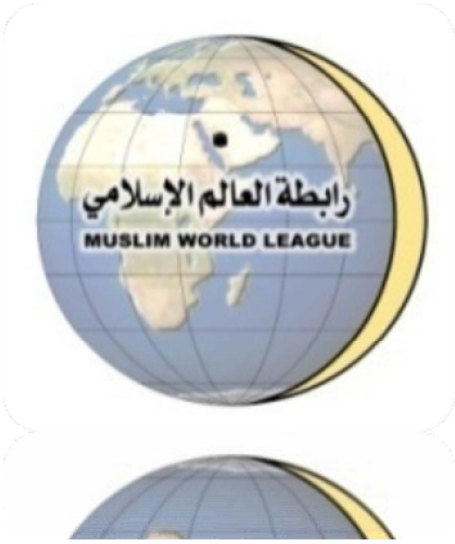

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد:

فإن الكتابة عن الثقافة الإسلامية ومحاولة التأصيل لها كعلم قائم بذاته، هي محاولة جادة بكل تأكيد، وعمل مُضنٍ يغوص في أعماق الدين والتجربة الإسلامية وما أنتجاه من علوم ذات طابع موسوعي، ونماذج حضارية عميقة متنوعة، فالبحث في الثقافة الإسلامية هو بحث في خصوصية الأمة الإسلامية؛ أمة الرسالة والشهادة، أمة متميزة برسولها ﷺ ورسالته الخاتمة ودينه الحق الذي هو دعوة للناس جميعاً على هَدي من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

والثقافة الإسلامية مصدُرها الوحي الإلهي، ومنهجُها التجربة التي خاضها العقل المسلم، إيماناً وفهماً وتنزيلاً لهذا الوحي العظيم في حياة الإنسانية، ولقد خاضت الأمة الإسلامية التجربة بكل جدارة واقتدار، فحكمت العالمَ بهذه الثقافة زمناً طويلاً، فكان المسلم في موقع القيادة، متوشحاً بثقافة إسلامية أصيلة ميَّزته عن باقي الشعوب والأمم الأخرى، وهو اليوم يحاول أن ينهض من جديد بجيل يبحث فيما تركه الرسول محمد ﷺ كتاباً وسنة، وفيما خاضه سلفنا الصالح رضي الله عنهم من تجربة فذة فريدة، وفي التراكم المعرفي الإسلامي، ليرسم لنفسه طريقاً وسطاً في هذا الموج المتلاطم من تزاحمٍ للثقافات والمعارف والأعراف، فالمسلم يريد أن يعرف ويتعلم الأصول والقيم التي تُمَكّنه من الوقوف بصلابة وجلَد، منطلقاً نحو صناعة مستقبله بذاته، بمقومات وأصول يبني عليها منظومته الثقافية التي دَخل فيها ما ليس منها، وخَرج منها ما كان يَجِب ألا يخرج منها، فدخل فيها الهجين وخرج منها الأصيل.

والأصول التي تقوم عليها هذه الثقافة كثيرة ومتعددة، وهي في نظري تنقسم إلى قسمين: مقومات أصلية، ومقومات فرعية خادمة للأصل، فما كان أصلاً فهو ثابتٌ موقوفٌ بحكم النص، وما كان فرعاً فهو عائدٌ إليه مُحتكِمٌ بِه.

عليه فقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة:

المبحث الأول: مفهوم الثقافة الإسلامية ومقوماتها، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الثقافة الإسلامية.

المطلب الثاني: مفهوم مقومات الثقافة الإسلامية.

المبحث الثاني: المقومات الأصلية للثقافة الإسلامية، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العقيدة.

المطلب الثاني: الشريعة.

المطلب الثالث: الأخلاق.

المبحث الثالث: المقومات الفرعية للثقافة الإسلامية، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اللّغة العربية.

المطلب الثاني: التاريخ الإسلامي.

المطلب الثالث: الفكر الإسلامي.

خاتمة.

المبحث الأول
مفهوم الثقافة الإسلامية ومقوماتها

لم يتناول العلماء المسلمون قديماً مصطلحاً خاصاً بالثقافة يتجاوز المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي، إذ أنَّ كلَّ علم من العلوم الشرعية قد قاموا بتمحيصه وتدقيقه والتصنيف فيه، ووضعوا له مصطلحات تَختصُ به، إلا أننا لا نجد مصنفاً عند المختصين باصطلاحات الفنون؛ يَختصُ بالثقافة الإسلامية بِوَصفها عِلماً مستقلاً، ونظراً لحساسية المصطلح بسبب ما يحمله من مضامين عقائدية ومعرفية وفكرية بوجه عام، كان حرِياً بنا أن نلتفت إلى موضوع الثقافة الإسلامية، محاولين وضع اصطلاح لها، وسط تعريفات كثيرة جَعلَت دلالاتِها تتأرجح بين ما هي مُنضبِطة بأحكام الشريعة، وما هي مُتساهِلة معها مُتجاوِزة لبعض قواعدها؛ بحجة حرية الفكر والتعبير وإبداء الرأي.

وتَكمن خطورة تحديد مصطلح الثقافة الإسلامية؛ فيما نشهده اليوم من تطور مذهل في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وبروز العولمة الثقافية التي أُريد لها أن تُحوِّل العالمَ إلى قرية صغيرة يستهلك فيها الإنسانُ نفس الثقافة المادية الملحدة.

ولأن لهذه الأمة خصوصيتها ومقومات وجودها وشخصيتها المتميزة، فلابد من وضع تعريف للثقافة الإسلامية يُميِّزُها عن باقي الثقافات الأخرى، يُفَعِّلُ وجودها ويُعَولِمُ ثقافتها.

المطلب الأول: مفهوم الثقافة الإسلامية:

تعرف الثقافة الإسلامية باعتبارين: الاعتبار الأول بحسب الإضافة: فهي مركب إضافي تحتاج إلى تعريف مفرداتها، والاعتبار الثاني: بوصفها مصطلحاً علمياً قائماً بذاته، وهو الاعتبار العلمي، فقد جُعلت لقباً لعلم يختص بدراسة مسائل مخصوصة بمنهجية متميزة عن غيرها من المناهج.

أولاً: مفهوم الثقافة الإسلامية باعتبار الإضافة:

١) الثقافة: مادة (ثقف) في اللغة العربية لها عدة دلالات، منها: الحذْقُ:

قال ابن دريد: ثقفتُ الشيءَ: حَذقتُه، وثَقَفتُه: إذا ظفرتُ به، وثقف الرجلُ ثقافة: إذا صار حاذقاً، وقال ابن السِّكِّيت: رجل ثَقْفٌ لَقْفٌ: إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به[(١)].

وزاد البيضاوي: أصل الثقف: الحذق في إدراك الشيء؛ علماً كان أو عملاً[(٢)].

ومنها: الإحكام، فيقال: رجل ثَقْفٌ لَقْفٌ: إذا كان مُحْكِماً لما يتناوله من الأمور[(٣)].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ٩/ ١١.

(٢) ناصر الدين البيضاوي، تفسير البيضاوي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م، ١/ ٤٧٦، في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

(٣) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م، ١/ ١٨٢، في سياق تفسير نفس الآية.

ومنها: الإيجاد والتسوية والتمكن وسرعة الأخذ[١].

فالثقافة لغةً: إيجاد الشيء وتسويته والتمكن منه مع سرعة أخذه بحذق وإحكام، وينصرف هذا المعنى إلى كل الأشياء دون استثناء، فلا يَثقف المرءُ أمراً إلا إذا كان فيه من المعاني ما ذكرتُه آنفاً.

والثقافة ظاهرة إنسانية يتميز بها الإنسان عن كل مخلوقات الله عز وجل، فهي بحث دائم مستمر؛ «لأنها هي التي تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري»[٢].

فالإنسان يبحث في الطبيعة وما وراء الطبيعة، ليعرف ذاته ويحدد علاقاته مع الآخرين، وهي عملية بحث عميق متجدد، من البسيط إلى المعقد، ومن القضايا المحسوسة إلى المعاني المجردة، وبالأخص الأمور المعنوية، فَتُكسبُه ضروباً من الخبرة العلمية والمعارف النظرية، لِتُشكِّل تراكماً معرفياً يجسد الخبرة البشرية على مر العصور، فيصير مرجعاً للثقافة تتزاحم بين تفاصيله نظريتان مختلفتان، إحداها: «أن الثقافة هي ثمرة للفكر والإنسان، والأخرى: أن الثقافة هي ثمرة للمجتمع»[٣].

فالفكر والمجتمع مصدران أساسان للثقافة، وهي نَظَرِيَّةٌ للعقل الغربي بمختلف مذاهبه ومفكريه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ط/ ١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ١/ ١٧١، وانظر أيضاً: أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير، ط/ ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ١/ ١٧٢. وانظر أيضاً، فخر الدين الرزي، تفسير الفخر الرازي، بيروت، دار الفكر، ٦/ ١٣٩، في سياق تفسير نفس الآية.

(٢) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، الكويت، كتاب عالم المعرفة ١٩٩٧م، ص٨.

(٣) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط/ ٤، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٤م، ص٢٩.

ويمكن أن يضيف العقل المسلم- بوصفه مُنْتِجًا للثقافة والحضارة الإسلامية- نظرية أخرى: وهي أن الثقافة ثمرة للوحي أيضًا، واستبعاد معطى الوحي في صناعة الثقافة له ما يبرره في تاريخ العلوم في الفكر الغربي، لأن الثقافة (culture) كانت تُدرس دومًا في التخصصات المعرفية في العلوم الاجتماعية، وهي تخصصات ترتكز على دراسة المجتمع ودور الإنسان فيه بنظرة مادية قريبة من الإلحاد، وعليه، فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة، أتى به عالم الأنثربولوجيا البريطاني، إدوارد تيلور (Edward B.Taylor) في نهاية القرن (١٩)، فقد جاء في كتابه (الثقافة البدائية) عام ١٨٧١ (Primative Culture)، تعريف الثقافة (الحضارة)، ويُعد التعريف مَرجع العلوم الاجتماعية المعاصرة، فالثقافة عنده هي: ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والتقاليد؛ وأية قدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان كعضو في المجتمع.

أما عالم الاجتماع الأمريكي لسلي وايت (Lesly White)، فيربط مفهوم الثقافة عند الإنسان بقدرته على إعطاء معانٍ للأشياء، ويسميها بالقدرة الرموزية (Ability To Symbol) التي تسمح للإنسان بفهم معاني الأشياء، وكذلك خلْقها واستعمالها، ويعرِّف الثقافةَ باعتبار تلك القدرة الرُّمُوزِية عند الإنسان، ويقول إنه لا يوجد إنسان دون ثقافة، ولا توجد ثقافة دون إنسان[١].

تعريف تايلور ووايت، ينبعان من مشكاة واحدة، وهي التفسير الطبيعي للأشياء، فالطبيعة بمكوناتها الاجتماعية والإنسانية هي المُنشِئ للثقافة،

(١) د/ محمود الذوادي، أضواء جديدة على طبيعة الثقافة في الرؤية المعرفية الإسلامية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد/ ٤٢-٤٣، ٢٠٠٦، ص ١٢٩.

وهي نظرية تستبعد الغيب من مكونات الثقافة، ولفظ العقيدة الذي ورد في تعريف تايلور؛ المقصود به الطبيعة، لذا فقد بات ضرورياً أن نطرح بديلاً معرفياً إسلامياً لمفهوم الثقافة؛ على أساس أن الثقافة هي ثمرة للوحي أيضاً.

وتكمن صعوبة إعطاء مفهوم إسلامي دقيق للثقافة؛ في كونها ليست شيئاً جزئياً، بل هي أمر كلي، وفي «جنوح كل صاحب عِلم إلى التعريف بها من وجهة نظر العلم الذي ينتمي إليه»[(١)].

إن مفهوماً تكاملياً من الناحية المعرفية للثقافة، هو المَخرج الوحيد في نظري لتعريف الثقافة؛ ذلك أن إدخال معطى الوحي في صياغة مفهوم جديد، يمُكن أن يبني نظرية إسلامية للثقافة، وعليه يمكن الوصول إلى التعريف التالي بنظرة كلية تأصيلية: فالثقافة إذن هي ثمرة للوحي والإنسان والمجتمع، تجسيداً للرؤية التوحيدية الخالصة لله تعالى وللتصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون، تحقيقاً لمبدأ العبودية لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وسيراً على منهج الاستخلاف الرباني، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وتسخيراً للكون في خير البشرية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

---

(١) د/ خليفة حسين العسال، الثقافة الإسلامية والتحديات الفكرية المعاصرة، حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد/ ٨، ١٩٩١، ص ٨.

٢) الإسلامية: نعني **بالإسلامية**:

الرجوع إلى الدّين الإسلامي بجميع مصادره واجتهاداته، وهي قضيةٌ البحث فيها معقد جداً، ونعني **بالإسلامية** أيضا: البعد الزماني والمكاني للأمة الإسلامية التي ترتسم ملامحها زمانياً منذ أن بعث الله عز وجل محمداً عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً خاتماً للأنبياء والمرسلين، والبحث في البعدين الزماني والمكاني، لا يقل خطورة وتعقيداً عن البحث في الدين الإسلامي، فالبحث في الثقافة الإسلامية هو بحث في المصادر والاجتهادات والزمان والمكان.

وبشيءٍ من التوضيح، فمصادر الثقافة الإسلامية هي نفسها مصادر التشريع الإسلامي التي تَنْتَظِمُ بها حياة الناس، وهي مصادر يجب أن تكون خارجة عن الهوى والتشهي، فهي بهذا المعنى أحكام، والأحكام مصدرها الشارع الحكيم، وإذا كانت الثقافة فِعْلاً، فهي فعل للإنسان المكلف بالحكم الشرعي الذي هو «خطاب الله تعالى القديم المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير»[١]

والاقتضاء والتخيير حدود رسمها علماء الأصول لِيَتَحرَّك من خلالها المكلف، ثقافة وفكراً وسلوكاً، وهي أحكام خمسة «يدخل في الاقتضاء أربعة أحكام: اقتضاء الوجود بالوجوب أو الندب، واقتضاء العدم بالتحريم أو الكراهة....أو التخيير، لتندرج الإباحة فتكمل الأحكام الخمسة»[٢].

---

(١) القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختيار المحصول في الأصول، ط/ ١ مصر، دار الفكر، ١٩٧٣، ص ٦٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٨.

هذا جزء مما تعنيه (**الإسلامية**)، ومما تعنيه أيضاً: حُسن الأفعال وقُبحها، وتفصيل ذلك أن «حُسنَ الشيء وقُبحَه يراد بهما ما يلائم الطبع أو ينافره، كإنقاذ الغرقَى واتهام الأبرياء، وكونهما صفة كمال أو نقص، نحو: العلم حَسن، والجهل قبيح، أو كونه موجِباً للمدح أو الذم الشرعيين، والأوَّلان عقليان إجماعاً، والثالث شرعي عندنا، لا يُعلم ولا يثبت إلا بالشرع، فالقبيح ما نهى الله تعالى عنه، والحَسن ما لم يَنْهَ عنه»[١].

فتصبح بذلك (**الإسلامية**) مقيدة تقييداً مطلقاً، بأنْ لا يثبت حكم قبل ورود الشرع، وأنَّ ما أمر به الشارع فهو حسن، وما نهى عنه فهو قبيح، أما ما تعلق بمنافرة الطبع وملاءمته أو بصفات الكمال والنقصان؛ فتلك قضايا للعقل فيها فسحة كبيرة ونطاق أوسع.

أما الاجتهادات، فتؤول في مجملها إلى نظر العقل، ونقصد هنا: العقل المسلم الذي عُد حِفظُه مقصداً كلياً من مقاصد الشريعة، «فهو آلة الفهم، وحامل الأمانة، ومحل الخطاب والتكليف، فالعقل لا ينحصر الحفاظ عليه بالمثال الذي ساقه الأصوليون من تحريم الخمر وأشباهها كونها مزيلة للعقل، وإنما تشمل هذه المحافظة أيضاً: الحفاظَ عليه من جانب الوجود بالبحوث العلمية، والنشرات الخاصة التي تُعنى بالعلم والمعرفة وتهدف إلى الارتقاء العقلي المعرفي وفتح آفاق جديدة أمامه لم يكن قد وقف عليها من قبل»[٢]، ومن هذه الآفاق: محاولة التأسيس لعلمٍ يُعنى بالثقافة الإسلامية.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٨٨.

(٢) د/ عبد الرحمن الكيلاني، قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، عرض ودراسة وتحليل، ط/ ١، دمشق، دار الفكر ٢٠٠٠، ص ١٧٣-١٧٤.

هذا العلم وغيره من العلوم، يُقيم قواعدَه ويَرُصُّ بنيانَه العقلُ المسلم، الذي يتم تكوينُه ابتداءً على أسسٍ مستنبَطة من الكتاب المقروء (الكتاب والسنة)، ومن الكتاب المرئي، وهو الكون.

وفي تقديري، فإن أسس تشكيل العقل المسلم لا تتجاوز ما يلي:

١ - المبادئ الإسلامية المستقاة من القرآن والسنة على شكل أوامر ونواهي، فالأمر هو: «طَلَبُ الفعل على جهة الاستعلاء»[١]، والنهي هو: «اقتضاء الكَّفِ عن فعل حتماً واَستعلاءً»[٢]، مع اعتبار القرائن التي تنقل طلب الفعل والترك إلًى ما دونهما من حيث أقسام الحكم الشرعي كما هو مقرر عند علماء الأصول، وكلها في نظري مبادئ إسلامية، تحكمها الأوامر والنواهي المبثوثة في الأدلة التفصيلية في الكتاب والسنة.

٢ - المقاصد الكليَّة، وهي المعروفة بالمقاصد الضرورية للشريعة، وهي خمسة: حفظ (الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل)، والمقاصد الكليَّة من المكونات الأساس للعقل المسلم، وقد وضع الشاطبي تعريفاً دقيقاً لهذا المعنى فقال: «فأما الضرورية فمعناها: أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدَتْ لم تَجْرِ مصالح الدنيا على استقامةٍ؛ بل على فسادٍ وتَهَارُجٍ وفَوْتِ حياة، وفي الأخرى فَوتُ النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين»[٣].

---

(١) ابن الحاجب، مختصر المنتهى، مطبعة إسلامبول، ٢/ ٧٧.

(٢) الإسنوي، نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلى الأصول، ومعه شرح البدخشي (مناهج العقول)، مصر، مطبعة صبيح، ٢/ ٦٢، وانظر أيضاً: ابن عبد الشكور، مسلم الثبوت، مصر، المطبعة الحسينية، ١/ ٣٢٨.

(٣) الشاطبي، الموافقات، مصر، مطبعة المكتبة التجارية، ٢/ ٨.

٣- القواعد الكليَّة، وهي أيضاً من المكونات الأساس للعقل المسلم، وقد وردت في كتب الشريعة بطرق الاستقراء، على نحوِ قواعدَ كليةٍ كبرى تفرعَت عنها قواعد كثيرة مبثوثة في مصنفاتٍ عِدة، وفي هذا دلالة عظيمة على سعة الشريعة ومرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

والقواعد الكليَّة الكبرى التي تعتبر الحد الأدنى التي يجب على المثقف المسلم معرفتها هي:

١- لا ضرر ولا ضرار.
٢- الأمور بمقاصدها.
٣- اليقين لا يزال بالشك.
٤- العادة محَكِّمة.
٥- المشقة تجلب التيسير[١].

٤- السنن الإلهية: وجاء ذِكْرُها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومن سماتها: الثبات والاطِّرَاد وعدم التخلف، دون الالتفات إلى مكانٍ أو زمانٍ أو إنسان.

فالسنن الإلهية قانون عام، ومُكوِّن أساسٌ للعقل المسلم، «تخضع له جميع الكائنات الحيَّة في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه، مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم

(١) وانظر: الشيخ أحمد الزرقا، شرح القواعد الفقهية، ط/ ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.

بقائه حيـاً... وخضـوع البشـرية لـه باعتبـارهم أفـراداً وأممـاً وجماعـات في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم، وما يكونون عليه من أحوال، وما يترتب على ذلك من نتائج، كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة، والعز والذل، والرقِيِّ والتأخر، والقوة والضعف، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية، وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم»[١].

ونعني **بالإسلامية** أيضاً: الالتفات إلى البعد الزماني والمكاني للأمة الإسلامية، فهي تمتد تاريخياً إلى ما يقارب ١٥ قرناً من الزمان، وبمساحة جغرافية تكاد لا تغيب عنها الشمس، وبنحو ربع سكان العالم (ما يقارب ١.٦ مليار نسمة).

وكان المسلمون سادة العالم في الحضارة، حكموا قُرابةَ ٨ قرون، أنتجوا فيها حضارة راقية، فأبدعوا في الفنون والصناعات والمعارف، فأصبحوا قِبلَةً لكل أمَّةٍ تريد الخروج من الجهل والتخلف.

إذَن **فالإسلامية**، تعني الحضارة الإسلامية بجميع مكوناتها، وهي مكونات من الصعوبة بمكانٍ تستوجب الوقوفَ عند تفاصيلها وتشعباتها.

والمفكر الجزائري «مالك بن نبي» قد قدم معادَلَتَهُ لحل المشكلة الحضارية، وهي:

«الحضارة = إنسان + تراب + وقت»[٢].

---

(١) د/ عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الجماعات والأمم والأفراد، ط/ ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢، ص ٧-١٢.

(٢) مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق، دار الفكر ١٩٨٦م، ص ٤٥.

لكنه أكد على نقطة جوهرية وحساسة، وهي أن الفكرة الدينية هي التي تصنع الحضارة وتوجهها، «فالحضارة لا تبعث إلا بالعقيدة الدينية»[١].

وتوضيحاً لهذا الكلام منه قال: «فالحضارة لا تظهر في أمةٍ من الأمم إلا في صورةِ وحْيٍ يهبط من السماء يكون للناس شِرعة ومنهاجاً»[٢].

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالوحي يعطي للحضارة صبغتها الإسلامية، وهو الذي يعطي للثقافة هذه الصبغة أيضاً، قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

يضاف إلى ما ذكرتُه من معانٍ **(للإسلامية)**: معرفة علوم العصر، وخاصة على مستوى اللّغات والتقنيات بوصفها وسائل وأدوات لتوسيع دائرة الثقافة الإسلامية ونشرها والدعوة إليها، لمحاولة إيجاد نمطٍ جديد في الحياة لا يشبه النمطَ الغربي الحالي الذي يكاد أن يسيطر على العالم كله.

ثانياً: مفهوم الثقافة الإسلامية بالاعتبار العلمي:

مفاهيم الثقافة الإسلامية كثيرة ومختلفة، إذ كل مفهوم يتأسس على تصورٍ يختلف عن التصور الآخر، وحتى الكتابة في الثقافة الإسلامية، لم تأخذ منحىً معيارياً عند معظم مَن كتبوا حول هذا الموضوع، لهذا نجد الاختلاف واضحاً عند عرْض محتوى بعض المؤلفات في الثقافة الإسلامية، ولنضرب مثالاً بنموذجين مختلفين في التأليف:

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٥١.

١ - التأليف الفردي:

أ- كتاب: الثقافة والثقافة الإسلامية، [١]، ويجمع هذا الكتاب بين تعريف الثقافة الإسلامية وعلوم الحديث والتاريخ والفقه الإسلامي وأصول الفقه واللغة العربية ونظام الحكم في الإسلام والاقتصاد والنظام الاجتماعي في الإسلام والأخلاق.

ب- كتاب أساسيات الثقافة الإسلامية[٢]، لا يُعرِّف الكتابُ الثقافة الإسلامية، ويجمع بين العقيدة ومصادر التشريع الإسلامي، والغلو في فهم الدين، وأهمية الوقت، والمعرفة والعلم ومصدرهما، وكلام عن العقل والإيمان والإسلام، ووجود الله، والتوحيد مع عرضٍ تفصيلي لمسائل العقيدة، والعبادات من صلاة وصيام وحج وعمرة، والعادات والسلوك، ونقد التصوف والطرق الصوفية وعادات الأفراح والمآتم.

ج- كتاب المَدخل إلى الثقافة الإسلامية، [٣]، لا يُعرِّف الثقافةَ الإسلامية، ويجمع بين الغزو الفكري والمعوقات التي تَحُول دون طلب العلم، وبعض الجوانب الإيجابية في طلب العلم والعلاقة بين العلوم التجريبية العصرية وعلوم الدين، والبناء والأساس في الإسلام وخصائص الإسلام.

---

(١) سميح عاطف الزين، الثقافة والثقافة الإسلامية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣.

(٢) الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، أساسيات الثقافة الإسلامية، ط/ ٨، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٦.

(٣) د/ محمد رشاد سالم، المدخل إلى الثقافة الإسلامية، ط/ ١٠، الكويت، دار القلم ١٩٩٠.

٢- التأليف الجماعي:

أ- كتاب الثقافة الإسلامية[١]، يجمع الكتاب بين تعريف الثقافة الإسلامية ومصادرها ومقوماتها ومعالمها وخصائصها، والإسلام والعلم، وقضايا ثقافية من منظورٍ إسلامي وتحدياتٍ تواجه الثقافةَ الإسلامية، والشبهات التي أثيرت حول الإسلام، وفي نظري أن هذا الكتاب هو أقرب إلى تخصص الثقافة الإسلامية.

ب- كتاب نظرات في الثقافة الإسلامية[٢]، يجمع بين تعريف الثقافة الإسلامية ومصادرها وخصائصها وتحدياتها المعاصرة، والعقيدة، والشريعة، والعبادة، والجهاد، والنظام الإسلامي، والنظام القضائي، والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي ونظام العقوبات، والحضارة الإسلامية وآثارها، والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والإسلام والقضايا المعاصرة، وهذا الكتاب هو أيضاً أقرب لتخصص الثقافة الإسلامية.

ج- كتاب الثقافة الإسلامية: تعريفها، مصادرها، مجالاتها، تحدياتها[٣]، يتطابق المحتوى مع ما ورد في العنوان بشكل كلي مع تفصيل دقيق لكل عنصر، ويبدو أن هذا الكتاب ينحو منحىً تأصيلياً للثقافة الإسلامية، وهو مهم من الناحية المنهجية.

---

(١) د/ محمد أبو يحي ومجموعة من المؤلفين، الثقافة الإسلامية، ط/ ٧، الأردن، دار المناهج للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.

(٢) د/ عز الدبين الخطيب التميمي ومجموعة من المؤلفين، نظرات في الثقافة الإسلامية، الجزائر، دار الشهاب ١٩٨٨.

(٣) د/ مصطفى مسلم، د/ فتحي محمد الزغبي، الثقافة الإسلامية، تعريفها، مصادرها، مجالاتها، تحدياتها، ط/ ١، الأردن، إثراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.

يلاحَظ أن المصنفات التي صُنفت جماعياً؛ أقرب إلى التأسيس لعلم الثقافة الإسلامية، بسبب تعدد تخصصات المؤلفين؛ مما أضفى عليها منهجية منضبطة ودقةِ طرْحٍ وغاياتٍ محددة.

ولنعرض الآن بعض تعريفات الثقافة الإسلامية مع بيان الأسس التي قامت عليها هذه التعريفات، ونخلص في الأخير إلى التعريف الذي توصلتُ إليه.

تُعرَّف الثقافة الإسلامية، بأنها: «المعارف التي كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثها، كعلم التوحيد والفقه والتفسير والحديث وعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة العربية ومصطلح الحديث وعلم الأصول»[١].

هذا التعريف ينطلق مِن أن العقيدة والشريعة واللغة هي الثقافة الإسلامية، وفي هذا دلالة على مراعاة المصدر في تأصيل الثقافة الإسلامية، ويقترب هذا المفهوم- مع بعض الزيادة فيه- من هذا التعريف: «الثقافة الإسلامية، هي مجموعة المعارف والعلوم النظرية والخبرات العلمية المستمَدة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي يكتسبها الإنسان، ويحدد على ضوئها طريقة تفكيره ومنهجه في الحياة»[٢].

يضيف هذا التعريف الجانب الوظيفي للثقافة الإسلامية ببيان منهج التفكير والسلوك، ويبدو أكثر شمولاً من سابقيه، فالثقافة الإسلامية: «هي مجموع الصفات والخصائص النفسية والعقلية والفكرية والخلقية التي تتميز بها الشخصية الإسلامية المكتسبة من مقومات الأمة الإسلامية ومن مقومات الدين

(١) د/ عز الدين الخطيب ومجموعة من المؤلفين، نظرات في الثقافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) د/ مصطفى سالم، د / فتحي محمد الزغبي الثقافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨.

الإسلامي؛ المستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة واجتهادات العلماء والمفكرين، المتفاعلة مع واقعنا العالمي المعاصر، تأثيراً وتأثراً»[١].

يجمع هذا التعريف بين عناصر أربعة: **شخصية المسلم، المصادر الإسلامية، اجتهادات العلماء، والواقع**، وهي في مجموعها تشكل الثقافة الإسلامية، وهناك تعريف آخر يؤسس للثقافة الإسلامية بوصفها عِلماً قائماً بذاته، فيقول: «هي علم دراسة التصورات الكلية والمستجِدات والتحديات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بمنهجية شمولية مترابطة»[٢].

وتركيز التعريف على **التصورات والمستجدات والتحديات** بالغ الأهمية، فإذا كانت المستجدات والتحديات يمكن الوقوف عليها بسهولة، فإنّ الصعوبة تكمن في التصورات التي تؤول إلى صياغة العقل المسلم صياغة سليمة، وهذا أكبر تحدٍ تواجهه الثقافة الإسلامية، لأن العقل المسلم يعاني اليوم خللا بنْيَوِيًا فظيعاً بسبب التصورات الفاسدة الناشئة عن العولمة الثقافية الغربية وبعض الموروثات الفاسدة، وتراكماً معرفياً جاداً وأصيلا يُمَكِّنُ من إفراز نمط جديد في الحياة، يكون فيه المسلم بثقافته المتميزة؛ نقطةَ الارتكاز تدور حوله كل الثقافات، ومركزاً للحضارة، تطبيقاً لمبدأ الخيرية الذي ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) د/ خليفة العسال، الثقافة الإسلامية والتحديات الفكرية المعاصرة، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢) د/ مصطفى مسلم، د/ فتحي محمد الزغبي الثقافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣.

أما ما خَلُصْتُ إليه من تعريفٍ للثقافة الإسلامية تأسيساً على تحليل مفهومها بالاعتبارين الإضافي والعلمي، وبعد عرضٍ تفصيلي لبعض التعريفات، فإنها: «**العلم بأصول الاعتقاد ومبادئ الشريعة وأحكامها وكلياتها وقواعدها والسنن الإلهية والحضارة الإسلامية ومنتجاتها وواقع المسلمين ومستجدات العصر وتحدياته**».

يقتضي هذا التعريف أن يحتاج البحث في هذا العلم إلى مختصين لهم دراية واسعة -منهجاً وموضوعاً- بعلوم الشريعة، وعلى اطلاعٍ معتبر بعلوم العصر ومستجِداته وتحدياته، كما يقتضي تحديداً موضوعياً وقدرةً على التحكم المنهجي في فنونه، لِيُتَوَّجَ هذا الجهد بتصورات قوية سليمة هادفة، لميلاد مجتمع الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهذه غايتنا جميعاً.

المطلب الثاني: مفهوم مقومات الثقافة الإسلامية:

المقومات في اللغة: جمع (مُقَوِّم)، وهو اسم فاعل من قَوَّمَ يُقَوِّمَ تَقْوِيماً، أي ما يتركب منه جسم أو جهاز أو مشروع من عناصر أساسية تُسهم في قيامه ووجوده وفعاليته، فمقومات الثقافة الإسلامية هي عناصرها وعواملها الأساسية التي بها تقوم، والاشتباه حاصل بين مقومات الثقافة الإسلامية ومصادرها، فيمكن أن نتحدث عن المقومات ونقصد بها المصادر، أو أن نتحدث عن المصادر ويفهم البعض منها أنها المقومات، فالخلط واضح عند كل مَن كتب في الثقافة الإسلامية من المفكرين والعلماء.

ولكن ما هو الأمر المُسْتَهدَف بالتقويم ؟ والجواب: أنها الثقافة الإسلامية، وبالتالي يتجه البحث في المقومات إلى الجانب الوظيفي، فتصبح المقومات:

مجموعة الأصول المستنبطة من مصادر الشريعة الإسلامية، مضافاً إليها أدوات منهجية مكمِّلة، لا تقل أهمية عن الأصول، لكنها فرعية، فالأصلي منها ثابت لا يقبل التبديل والتغيير، في حين أن الفرعي منها قد تطرأ عليه ظروف وأحوال تغيره من وجهة إلى أخرى.

وقد حاولتُ جهدي أن أحصر هذه المقومات- الأصلي منها والفرعي - فوجدتها كثيرة، وبعد طول تأمل وتفكير؛ اهتديتُ إلى ما يمكن أن يتفق عليه أغلبية الباحثين على الأقل، فَسَمَّيْتُ المقومات الأصلية: بالعقيدة والشريعة والأخلاق، وَوَسَمْتُ الفرعية باللغة والتاريخ والفكر الإسلامي، وهذا ما سأقوم ببسطه في المبحثين القادمين.

المبحث الثاني
المقومات الأصلية للثقافة الإسلامية

المطلب الأول: العقيدة:

العقيدة الإسلامية- والتوحيد بخاصة- هو الذي يعطي للثقافة الإسلامية هويتها، ويجعلها متميزة عن باقي الثقافات الأخرى، وهو الذي يميز هذا الدين عن الديانات الأخرى، وهو الطريق لمعرفتنا بالله عز وجل وبعلاقات مخلوقاته به، وعليه فإن حقائق العقيدة لا تقبل التغيير ولا التبديل، وهي عقيدة أركانها مضبوطة معلومة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره.

هذه الأركان هي إحدى المقومات الأساسية للثقافة الإسلامية في جانبها العقائدي.

فأصل الإيمان بالله يتضمن «إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله قلبٌ غيرَه: لا بحب ولا خوف، ولا رجاء، ولا إجلال، ولا إكبار، ولا رغبة، ولا رهبة، بل لابد أن يكون الدين كله لله»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا هو المقصود بتوحيد الألوهية؛ الذي ضلت فيه الأفهام، ونُسجت حوله الأوهام، فانحرفت عن أوامر الشارع الحكيم، ونشأت تصورات وعقائد فاسدة، أثَّرت بشكل جلِي على المنظومة المعرفية لثقافة المسلم، وأدخلت فيها ألوانًا متعددة من الشركيات الباطلة.

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ط/ ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ص ٤٥٢.

يليه توحيد الربوبية الذي يدحض تعددَ الأرباب في الثقافة الغربية المعاصرة، كأرباب القوة والمال والسلاح، وأحادية القطب الكوني وثنائيته، وسدنة المعابد والكنائس.

فتوحيد الربوبية هو: «الإقرار الكامل لله بأنه موجِد الخليقة جميعاً، وأنه مالك كل شيء بما في ذلك الدنيا والآخرة والأرض والسماء والغيب والشهادة، وأنه المحيي المميت، فهو سبحانه يملك بيده مصائر الحياة والحقائق والأشياء جميعا»[١].

ويليه توحيد الأسماء والصفات؛ بما يفرضه من نسبة الكمال المطلق لله عز وجل دون أن يعتوره نقص أو عجز أو جهل أو نحوه، ولا يجوز أن ننسب إليه تعالى اسماً أو صفة إلا ما ورد نصا في الكتاب والسنة، «وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إثبات الذات ومالها من صفات، فالله سبحانه وتعالى بعث أنبياءه بإثباتٍ مفصَّل ونفْيٍ مجمل، فأثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات»[٢].

ثم الإيمان بالملائكة، بوصفه أصلاً من أصول الاعتقاد، والتقيد بكل ما جاء في خَلقهم ووصفهم وعددهم وأسمائهم ووظائفهم وصلتهم بالبشر، بالكتاب والسنة.

---

(١) د/ أمير عبد العزيز، دراسات في الثقافة الإسلامية، بيروت، دار الكتاب العربي، ص ١١٧-١١٨. وللتفصيل أكثر؛ انظر: د/علي السالوس، د/عمر سليمان الأشقر ومجموعة من المؤلفين، دراسات في الثقافة الإسلامية، الكويت، مكتبة الفلاح، ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، مرجع سابق، ٤٦٥.

ثم الإيمان بالرسل والكتب، بِوَصفِها أصلاً من أصول الاعتقاد، مع الالتزام بعدم التفرقة بين الرسل، فالتفرقة كُفر بهم جميعا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٠].

والإيمان بنسخ الشرائع السابقة بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، وعموم رسالته وكمالها وشمولها، وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين، والإيمان بحاجة البشرية لشريعته وتكفُّل الله بحفظها إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والكتب السماوية كلها طالَها التحريف والتزييف، إلا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه ليكون شريعة الله الخالدة، وجاء القرآن مصدقًا ومهيمنًا على كل الكتب والشرائع.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان باليوم الآخر، أَكْبَرُ إشكالية تواجه الثقافة الغربية المعاصرة، فطغيان الفلسفات المادية الإلحادية على هذه الثقافة، جعل إنسان الغرب يبحث فقط عن تلبية رغباته المادية دون وازع ديني أو أخلاقي، فشاعت الرذيلة، وعمَّ الانحلال، فلا عبرة عنده بالمصير، وقد انتقل هذا اللَّونُ من الثقافة إلى الإنسان المسلم، وهو يعيش اليوم هَوَسًا وتخبُّطًا كبيراً.

والقرآن الكريم يجيب عن هذه الإشكالية بكلام هو غايةٌ في البلاغة والبيان، يقول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٣-٩٦].

ففي الثقافة الإسلامية، هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة التي نحياها، وقد بيَّنَها القرآن الكريم باستدلالات معجزة تقنع العقل وتدحض آراء المجادلين والمخالفين حول استمرارية الحياة في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

فالواجب أن يدرك المسلم أن الإيمان باليوم الآخر والبعث، مُقَوِّمٌ من مقومات منظومته الثقافية، فَيَعرف أن السعادة الأخروية، هي ثمرة العمل الصالح القائم على الإيمان الصحيح والعمل السليم، وأن الشقاوة الأخروية نتيجةٌ للفساد الدنيوي القائم على الإعراض عن ذِكر الله وهَديه.

أما الإيمان بالقضاء والقدر، فيبعث الاستقرارَ والأمنَ النفسيَّ في المسلم، وينزع فَتيلَ القلق الذي يهدد صحة الإنسان وسلامته العقلية والجسدية، وما الانحراف السلوكي والجنوح إلى الجريمة إلا تعبيرٌ عن القلق والاضطراب الذي يعاني منه الإنسان اليوم.

فثقافة المسلم القائمة على الإيمان بالقضاء والقدر، هي الطريق إلى طمأنينة القلب وهدوء النفس، وهي نَتِيجَةُ التسليم بما يَلحقه من خوف أو جوع أو نقص

في الثمرات والأنفس، أو ما يصيبه من نكد وضعف ومرض ونحو ذلك، إذعاناً لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وامتثالا لوصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «...**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

ومن ثمراته: سعي الإنسان في الأرض علماً وعملاً - دون الالتفات إلى النتائج-بحسن التوكل والتسليم بقضاء الله وقدره.

المطلب الثاني: الشريعة:

الشريعة هي الجانب العملي الذي يُنَظِّمُ علاقة الإنسان بخالقه، ثم بأخيه وبالحياة والكون وبرسالته في العالم، ومنهجه في هذا هو الاتباع، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية:١٨] وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، والمنهاج هو الطريق، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

«فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه»(٢)، والشريعة أوامر، وهي محيطة بكل أفعال المكلفين، وهي مُقِوِّمٌ أساس من مقومات الثقافة الإسلامية، إذ بها يظهر سلوك المسلم ويتميز به عن غيره،

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحِكم، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢، ص ١٨٣، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الرياض، مكتبة المعارف، ١٩٨٦، ص ٣٦-٣٧.

ولو بذل المرء حياته في تحصيل أبعادها ومراميها لما وسعه ذلك، لكنه بشريعته في غِنى عن كل الثقافات الأخرى.

إذَن فالثقافة الإسلامية كاملة بكمال هذا الدين، وهي تحتاج فقط إلى ترتيبٍ وتنظير وتنزيل بمنهجية واعية بواقع العصر الذي نعيش فيه وبتحدياته الآنية والمستقبلية[١].

وبالنظر إلى ما تركه لنا فقهاء الإسلام من تراث عظيم من الأحكام الشرعية التي كانت في الغالب أثراً لاجتهادهم، يمكن ملاحظة ما يلي:

أولاً: «الأحكام الثابتة، وهي التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال والأزمان.

ثانيًا: الأحكام الجزئية، وهي التي رُوعيت فيها مصالح الناس وعُرفهم في الوقت الذي استنبطت فيه»[٢].

فمن خلال هذه الجزئية من البحث يُمْكِنُ القول: إن هناك مقومات للثقافة الإسلامية ثابتة لا تتغير، وهي التي لها علاقة بإنشاء الأحكام، وهناك مقومات أخرى قابلة للتغيير، وهي التي تدور حول المصلحة وطريقها الاجتهاد، فتتوسع وتتنوع وتختلف من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، ومن بلد إلى بلد وفق مسارات الاجتهاد التالية:

- أخذ الحكم من ظواهر النص إذا كان الحكم مما تتناوله تلك النصوص.
- أخذ الحكم من معقول النص عن طريق القياس.

---

(١) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل ١/ ٣٣٢.

(٢) الشيخ علي السايس، نشأة الفقه الاجتهادي وتطوره، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية، كتاب التوجيه التشريعي في الإسلام، بيروت، منشورات الكتب العلمية، ٣-٤/ ١١٤.

- تنزيل الوقائع على القواعد العامة المأخوذة من القرآن والسنة، ويسمى: الاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع وما إلى ذلك من مسالك الاستنباط[١].

فيتوسع الاجتهاد بحسب ما تقتضيه الحاجة وتتطلبه مصلحة الأمة الإسلامية، وبقدر ما يطرأ على العالم من مستجدات؛ وتقع فيه من حوادث في حياة الإنسان، فكلما أجاب علماء الشريعة عن هذه الحوادث بإجابات شرعية شافية؛ احتاجت الثقافة الإسلامية إلى ذلك وعُدَّ من مقوماتها، ويبقى البحث مستمراً في مقومات الثقافة الإسلامية التي يطرأ عليها التغيير، تَحْيِينًا لها، واستجابة لما يطرأ في هذا العالم من تغير.

المطلب الثالث: الأخلاق:

هي علم قائم بذاته، به «تُعرف أنواع الفضائل، وموضُوعُه: الملَكات النفسانية من حيث تعديلها بين الإفراط والتفريط»[٢].

ولما كان البحث عن الأخلاق بوصفها مقوماً من مقومات الثقافة الإسلامية، فإن اهتمامنا بها لا يكون من الزاوية التنظيرية؛ بل من الجانب العملي فقط، «فلا يُهْتَمُّ بها من الناحية الفلسفية، ولكن من الناحية الاجتماعية»[٣] التي تعتبر مسلكاً وغاية للأخلاق في نفس الوقت.

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١١٥-١١٦، وانظر أيضاً: د/ محمد فاروق النبهان، المدخل للتشريع الإسلامي، ط/ ١، بيروت، دار القلم، ١٩٧٧، ص ١١.

(٢) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١/ ٣٨٣.

(٣) مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق دار الفكر، ١٩٨٦، ص ٨٨.

فدور الأخلاق: الجمع بين الأفراد في مجتمعٍ واحدٍ متماسك، يسوده التعارف والحب والمودة والتعاون، وأول مجتمع مبني على الأخلاق الفاضلة؛ وضعَ أُسسَه الرسول ﷺ في وثيقة المدينة المنورة[١]، ثم في مكة المكرمة عام الفتح بعد أن اشتد الإسلام وقوِيَ عودُه.

ومن منظورٍ إسلامي صِرف، فإن الأخلاق منحة ربانية ووحْيٌ خارج عن شهوات النفس ورذائلها، وقد جسد القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فالتأليف بين القلوب مسألة أخلاقية أولاً، وبه يقوم نظام اجتماعي إسلامي «القيمة الأخلاقية فيه هي التي تُجَسِّدُ روح العلاقات»[٢].

هذه القيم تشمل كل تصرفات الإنسان الحسنة (كالأمانة والصدق والعدل)، والقبيحة (كالخيانة والكذب والظلم).

وعليه فإن مصدر الأخلاق: الدين الإسلامي، ومنشأها: الأحكام الملزمة الثابتة المطردة؛ لأن لها طابع العبادة، فالمسلم حين يتحلى بفضائل الأخلاق فهو في عبادة، ولعظمة الأخلاق؛ امتدح الله عز وجل رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ويقول النبي ﷺ: «**إن مِن أحبِّكم إليَّ أحسنكم أخلاقا**»[٣].

---

(١) انظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط/ ٥، القاهرة، دار النفائس، ١٩٨٥، ص ٥٩-٦٢.

(٢) د/ فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي، ط/ ١ الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١، ص ٢٥٤.

(٣) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لبنان، دار الفكر، ٧/ ١٠٢.

وقال ﷺ: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حُسن الخُلق**»(١).

والأخلاق بوصفها مقومـاً من مقومات الثقافة الإسلامية، تهدف إلى إصلاح النفس الإنسانية حتىَّ تكون مهذبة محفوظة من كل أسباب الآفات النفسية وعيوبها، ولا يوجد حلٌ لهذه المعضلة التي تواجه شبابَ اليوم، سوى التمسك بحبل الله المتين والتربية في ظل الإسلام، فتمتلئ النفوس بمعاني الخير والتضحية والحِلم والرحمة، وتبتعد عن الحقد والكراهية والحسد، فتتحول إلى خيِّرة طيبة كريمة.

ولعل أكبر تحدٍ يواجه الثقافة الإسلامية اليوم، هو مسألة التشبه بغير المسلمين في السلوك والملبس والمشرب والمأكل، وذلك بسبب العولمة الثقافية وطغيان نمط الحياة الغربية على كل شيء، لكنْ بإرجاع المسلم إلى دينه وتوعيته بذاته ورسالته؛ يمكن أن يعيد بناء منظومته الثقافية وفق القيم الإسلامية الأصيلة، فيصبح في غِنى عن كل مُنْتَجَاتِ الحضارة الغربية المعاصرة، فَيَطْرَحُ البديل لعولمة ثقافية إسلامية تتجاوز في معانيها وغاياتها العولمة الثقافية الغربية، ولا يتسنى له ذلك في نظري؛ إلا إذا سار وفق المنهجية التالية:

أولاً: أن يعي بأن الأخلاق الإسلامية هي واجبات دينية كالواجبات الأخرى.

ثانيـًا: أن يعلم أن الله قد نهى مطلقـًا عن موالاة غير المسلمين والتشبه بهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) البخاري، الأدب المفرد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ص ٩٠.

المبحث الثالث
المقومات الفرعية للثقافة الإسلامية

المطلب الأول: اللّغة العربية:

يكفي اللّغةَ العربيةَ شرفًا، أنَّ المولى تبارك وتعالى ارتضى أن يكون كلامُه بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذِّكْرِ فيما افتُرِض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من خَتَمَ به نبوته وأنزل به آخر كتبه؛ كان خيراً له[(١)]، فلم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، فمَعْرِفَتُهُ به من الدين[(٢)]؛ لأن مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقَلَتُها من الصحابة والتابعين عرب، وشَرْحُ مُشْكِلِهَا من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة[(٣)].

فاللّغة العربية أداة ووسيلة للمعرفة، لذا عُدَّتْ من المقومات الفرعية للثقافة الإسلامية، وقد تواتر النقل عن أهل العلم أن لا تَدَيُّنَ ولا معرفة بالدين إلا باللَّغة العربية، فمهما اختلف الجنس أو اللسان؛ فإنَّ مرَدَّ الكل إلى اللغة العربية، لما تحمله من دلالات في اللفظ والمعنى تساعد في فهْم الشريعة الإسلامية فهْماً سليماً، ولهذا أشار الشاطبي إلى أنَّ علم اللّغة العربية فرضٌ تتوقفُ صحة

(١) الشافعي، الرسالة، ط/ ٢، القاهرة، دار التراث، ١٩٧٩، ص ٤٨-٤٩.
(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، مرجع سابق، ص ١٦٢.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، ٢/ ٧٧١.

الاجتهاد عليه فلابد من تحصيله على تمامه، وأن التمكن من اللّغة يساعد على الفهم، فمَن كان تمَكُّنه من اللّغة قويـًا؛ كان أشدَّ فَهمـًا للشرع، ومَن كان متوسطـًا فهو كذلك في فهم الشرع، فبالأحرى إذا كان مبتدئـًا[1].

وقد أصيب شباب اليوم بلَكْنة الاستغراب اللّغوي في لسانه، فأصبح يَخْلِطُ في حديثه بين اللّغة العربية واللّغات الأجنبية، وزاد من غربته عن لغته لهجاتٌ عاميةٌ حلَّت محل الفصيح من كلام العرب، وشاع لونٌ من البحث في جامعاتنا العربية اختصَّ باللهجات والتراث الشعبي غير المنضبط بلسان، فعمَّت الفوضى اللّغوية، ودبَّ الضعف إلى لغة القرآن الكريم، والخروج من هذا المُنْزَلَق اللُّغوي يفرض ما يلي:

أولاً: أن نعرف أن تعلم اللّغة العربية ليس ترَفـًا فكريـًا، وإنما هو واجب شرعي تقتضيه طبيعة هذا الدين، فشَرفُ الوسائل من شرف المقاصد.

ثانيـًا: أن الله تعالى ارتضى أن تكون هذه اللغة وعاءً لكلامه، فمن الواجب أن نعي أن هذه اللغة ليست للدين فقط؛ وإنما هي لغة للعلم والثقافة والحضارة، فلا تقدُّم ولا تطور إلا بها، وأن لا ثقافة إسلامية أصيلة إلا بهذا المُقَوِّمُ المحوري.

المطلب الثاني: التاريخ الإسلامي:

جعل الله معرفة التاريخ سببـًا للعبرة، وأصَّلَ لهذا العلم من خلال ما ذكره من قصص في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ٤/ ١١٤.

ولشعور سلف هذه الأمة وقادة الرأي فيها بأهمية الأحداث التاريخية، فإنهم كانوا يعلمون أبناءهم السِّيَرَ والمغازي بقدر تعليمهم السورة من القرآن الكريم، فكانوا يُعرفونهم علماءَ الأمة الإسلامية وإبداعاتهم العلمية، وقادةَ الجهاد وملاحمهم البطولية، وأربابَ الصناعات وفنونهم المتنوعة.

فالتاريخ الإسلامي جزء من الثقافة الإسلامية، لأنه يشمل كل ما ورثناه عن الأسلاف من اجتهادات في كل المجالات، وفي كل عصر من عصور التاريخ ابتداء من عصره ﷺ، «فالتاريخ الإسلامي واحد من الجوانب التطبيقية والصورة العملية للإسلام، **فالاهتمام** بدراسته دراسة للإسلام»[(١)].

ويبدأ معرفة هذا المقوم، من دراسة سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام، والدعوة الإسلامية في المرحلة المكية والمدنية، والفتوحات الإسلامية، وكيف تحولت الديار التي فتحها المسلمون إلى ديار إسلام، وتقديم نموذج متميز للحكام المسلمين وللشعوب الإسلامية وحياتهم في ظل هؤلاء الحكام، والوقوف على مكائد الأعداء وطرق محاربتهم للإسلام والمسلمين.

وعند دراستنا للتاريخ الإسلامي بوصفه مُقَوِّمًا من مقومات الثقافة الإسلامية، يعترضنا إشكال كبير يتمثل في تلك النظرة الازدواجية للأحداث التي وقعت فيه، فمِن إضفاءِ نوعٍ من القداسة عليه وتنزيهه عن الخطأ والاعتراض، إلى ازدرائه والحطِّ من قيمته والنيل من شخصياته ووقائعه.

والنظرة المنصفة في تقديري، هي التي تقف في الوسط، فلا عصمة إلا لسيرة محمد ﷺ، وماعدا ذلك «فكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُرد إلا صاحب هذه الروضة» كما قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ، مع تقدير أن جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم أفضل جيل عرفته الأمة الإسلامية على وجه الإطلاق.

---

(١) د/ خليفة العسال، الثقافة الإسلامية والتحديات الفكرية المعاصرة، مرجع سابق، ص ٤٣.

فدراستنا لتاريخنا يجب أن تتسم بالعدل والموضوعية حتى نقوم بتصحيح أخطائنا ونستشرف مستقبلنا بكل ثقة واطمئنان، ولا يجوز أن نخشى بعض السلبيات التي وقعت في تاريخنا؛ لأن الإيجابي فيه طاغٍ على السلبي، فهو بلا شك يغطي على جميع هناتِه وعثراته، ويحق لنا أن نفخر بهذا التاريخ الذي حَكَمَ العالم قرونًا من الزمان، وساده في السيَّاسَة والحُكْمِ والعلم والحضارة.

المطلب الثالث: الفكر الإسلامي:

الفكر خاصِّيةٌ للإنسان، وهو العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان.

وهو مصطلح قرآني، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال أيضا: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

وقال أيضا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالآيات تدعو إلى إعمال الفكر وعدم تعطيل هذه الملكة الربانية التي ميز بها اللهُ الإنسانَ عن سائر مخلوقاته.

«والفكر عملية تردُّدُ القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبًا، أم رُوحًا، أم ذِهنًا، بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة»[(١)].

والأمور المعلومة هي الكتاب والسنة، والمجهولة هي ما نريد الوصول إليه.

---

(١) د/ طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي، عمان، مكتبة الأردن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥، ص١٠٣.

وكلمة إسلامي من النسبة للإسلام، فالبحث الفكري يكون في مصادر الإسلام، والباحث فيه هو ذلك المسلم الموحد الذي ارتضى الإسلامَ ديناً.

وقد عبر الفكر الإسلامي عن عبقرية إسلامية متفردة في كل مناحي الحياة، أنتجت حضارة عالمية، يشهد لها العدو قبل الصديق بعُلُو شأنها، واستيعابها لكل مظاهر التعدد البشري من اختلافٍ في الجنس واللون واللّسان والدين.

وعبقرية هذا الفكر فيما أبدعه العقل المسلم من طرائق ومناهج في البحث والتفكير، اعْتُبِرَتْ قوانينَ للفكر، هذه القوانين هي روح الحضارة الإسلامية.

ولطول البحث في هذه المسألة المعقدة، فإنني أكتفي بضرب أمثلة فقط.

ففي علم الحديث، يعتبر «معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسمائهم وكيفية أخذ بعضهم عن بعض، وأحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم»[(١)]؛ من أوجه الإبداع الفكري، وهذه القوانين التي وضعها هؤلاء الأئمة؛ استعارها المؤرخون لتكون منهجاً لهم.

وفي علم الأصول، يعتبر القياس الأصولي أحد أوجه الإبداع في هذا العلم الذي عدَّهُ بعض الباحثين: الفكر الإسلامي الأصيل.

يقول ابن خلدون: «ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقايسون الأشباه منها بالأشباه، ويناظرون الأمثال بالأمثال، بإجماعٍ منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك، فإن كثيراً من الواقعات بعده صلواتُ الله عليه وسلامه؛ لم تندرج في النصوص الثابتة، فقايسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه، بشروطٍ في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس»[(٢)].

(١) مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ٢/ ٥٣٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ٢/ ٥٥١.

وما يتبع هذا القياس الأصولي من إبداع فكري، إذ لا يُكْتَفي فيه بوجود الجامع بين الأصل والفرع؛ «بل لابد من قوانين تحقق بين الأصل والفرع، وقد تعارف الأصوليون على تسمية هذه الأدلة بالمسالك»[١].

وهي: السبر والتقسيم، والمناسبة والشبه، والطرد والدوران، وتحقيق المناط، وهذه المسالك كلها من إبداع العقل المسلم.

أما المنهج الذي استعمله العقل المسلم للوصول إلى النتائج من خلال هذه المسالك؛ فهو الاستقراء، وقد استعار علماء الطبيعة والكون هذا المنهج الاستقرائي، وحَوَّلُوهُ إلى المنهج التجريبي، فأبدعوا فيه أيما إبداع، فكانت لهم نظريات في علم الطب والرياضة والجبر والحساب والكيمياء والنبات وما إلى ذلك.

وقد ادعى المفكر والفيلسوف الإنجليزي Francis bacon وغيره من مفكري الغرب؛ أن المنهج التجريبي من إبداع عقولهم، لكن التحقيق العلمي والأمانة والعدل، ينسبون براءة اختراع هذا المنهج للمسلمين دون سواهم.

ويمثل المنهج التجريبي في الفكر الإسلامي؛ الجانب المادي للحضارة الإسلامية، في حين تمثل المناهج الشرعية الأخرى الجانب الروحي لها، وهو ما نصل إليه من نتيجة: أنَّ الفكر الإسلامي أنتج حضارة جمعت بين الروح والمادة.

فالفكر الإسلامي بمناهجه التي أبدعها، مُقَومٌ من مقومات الثقافة الإسلامية، ولا يمكن لهذه الثقافة أن تفك شفرة الحضارة الإسلامية إلا بعد فك رموز هذه القوانين التي هي قوانين للفكر الإسلامي قبل أن تكون قوانين للحضارة.

---

(١) د/ علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٤، ص ١١٩.

خاتمة

إعادة تشكيل العقل المسلم وبنائه من جديد؛ ضرورة حيوية في ظل العولمة الثقافية الغربية التي سيطرت على معظم مناحي الحياة في المجتمع الإسلامي.

وصياغة منظومة معرفية ثقافية تستمد شرعية وجودها من الوحي الإلهي العظيم؛ هي السبيل لمواجهة خطورة هذه العولمة المدمرة، فلم يبق من سبيل للخروج من هذا الرُكَام الهائل من المتناقضات الفكرية والأيديولوجية؛ سوى العودة إلى الإسلام النقي الصافي.

وبناء العقل المسلم الذي يعتبر أولى أوليات هذه الصياغة، يفرض بشكل نهائي أن تكون أسس هذا البناء متينة، لا تتأثر بالرياح الثقافية العاتية التي تهُبُّ على الأمة الإسلامية من كل مكان، فالعالم اليوم يعيش حرب الأقوياء، ولا مكان فيه للضعفاء.

والعقل المسلم هو الآلة المنتجة للثقافة الإسلامية التي تتأسس ابتداءً على النص الشرعي، لأنها تعبر عن رسالة الإسلام وخصوصية الأمة الإسلامية، وتنمو هذه الثقافة وتتطور كلما دعت الحاجة وتطلبته مصلحة الأمة، لكن بالضوابط الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة وفي اجتهادات علماء المسلمين العدول من أهل السنة والجماعة.

وتتطور هذه الثقافة باللغة العربية لأنها الوسيلة لفهم الشريعة، فهي بهذا المعطَى الجوهري: أحكام، والأحكام لا تُفقه إلا باللغة التي نزل بها الوحي، ويراعَى في هذه الثقافة: التاريخُ بوصفه التجربة الواقعية لتجسيد الإسلام في حياة المسلمين لمعرفة ما قدمه أسلافُنا من جهد معنوي ومادي للإنسانية، لأخذ العبرة وتجنُّب السقوط في أخطاء الماضي، كما تفرض هذه الثقافة معرفةً عميقةً

بقوانين الفكر الإسلامي التي هي إبداع للعقل المسلم، في وقتٍ كان يرزأ فيه العالم الغربي تحت وطأة الجهل والتخلف، فهي قوانين عرفها البعض بطرق الاستدلال، وعرفها البعض بالمسالك، وعرفها البعض الآخر بمناهج البحث، وإذا كان لكل حضارة منطقُها الذي تسير عليه، فهذه القوانين هي منطق الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص، ومنطق الحضارة الإسلامية بكل أبعادها وتجلياتها.